

# كولستان والليل

فصل من رواية كوردية قصيرة



◆ حسن سليمان

- أحقا سناتي...

- ألا تصدقين؟

- !!.....

- وحق عينيك سأتي... لكن ربما سأتأخر قليلا...

- لا يهم مهما تتأخر، لكن تعال...

- يبدو أنك مشتاقة الي.

- مشتاقة فقط! الشوق كلمة بلا روح، انا مجنونة لرؤيتك..

xxx

الليلة ستكتمل سنتنا الخامسة.. هو، هو، لم يتغير، لم استطع ان اغير كثيرا من طباعه.. نعم.. نعم انه يجيني وانا متأكدة من حبه لي، ولكن على طريقته الهادئة الصامتة... لا أتذكر الآن أنه قد قال لي ذات مرة:

- أحبك

لكنه حينما يصف شعري بانامله بتلك الرقة والحب، حينها يغزو الفرح وجهي من كل الجهات، وابتسامه بوسع الكون ترسم على شفتي، وأحس بطعم السعادة...عندئذ ادرك كم

يجبني، وكم حركاته أجمل من كلمات الحب التي يدفنها في اعماق صدره.. يتجسد حبه لي أكثر حينما يغرق بلا صوت في ليل عيوني ولا يحس بشيء آخر حواليه، إلا حينما أقول له بلطف:

- ألا يكفي

لكنه يدرك أنني أود أن يظل ينظر الي، لهذا يهز رأسه، ويطبق جفنيه، ثم يرفع حاجبيه، ومن الاعماق يسبح في بحر من الضحك...

لا اعرف لماذا لا يقول لي، انت جميلة.. او أنيقة؟ صديقاتي دوما يقلن لي، أزواجنا لا يكفون عن مدحنا وتبيان ملامح جمالنا.. لكنني لا أصدق أحاديثهن.. اغلب النساء كاذبات... حقا كنت أفرح عندما كان يبدي ملاحظاته حول فساتني التي أفصلها واخيطها في البيت، لا ينسى ان يقول لي:

"يا للجمال والاناقة! كم تليق بقدك، فلتسلمي لي يا حلوتي... ولتلبسي ماشئت من هذه الفساتين".  
ليته يقول لي ولو مرة:

"انك جميلة ورائعة.. او حسناء أو وديعة!!".

ألا يدرك الرجال اننا ظامئات جدا لمثل هذه الكلمات؟.

اووه... لا... لا... لا دعه لا يقلها أبداً.. لكن ليات الليلة وارنو من رؤيته، غير هذا لا اريد شيئاً

- لايزال الوقت مبكراً؟

- حقا، الوقت مبكر ..

- هو بنفسه قال قد أتاخر ...

- فليتاخر ..انا والليل والذاكرة وكوني المتاكل سكون في انتظاره.

xxx

أحيانا يعكر صفو نفسه بسبب ملابسني ويعاتبني:

((هي ي ي..هي ي ي..أهذا انت التي تقول عنك صديقاتك بمباهاة،

لا احد مثلك تختار ملابسها باناقة وذوق؟ ترددين هذه السترة على هذه التنورة؟! أووه.. يا للنشاز

والتضاد... هيا غيري ثيابك قبل ان يراك احد ما...))

هذه بدلته الجوزية التي اشتريناها معا، وهذا قميصه العسلي الفاتح، بالرائحتهما الطيبة، انها

نفس رائحته .. كم سيبدو انيقا بهذه الربطة المقلمة ... هيا تعال بسرعة... بالله عليك تعال، انا با

نتظارك، كلنا با نتظارك، انا وطفليك وشجرة التين وكتبك وملابسك المشتاقة لك مثلي، اتعرف ان نار الشوق

أشد حرارة من نار جهنم وقد احرق قلبي؟! ... تعال بالله عليك تعال، ماعاد في رأسي ذرة عقل، بالله

تعال !!!

xxx

كنت انصت الية بأذان صاغية حينما كان يتحدث لي عن عمله، او عن أشياء تحدث في الدائرة، ما تزال

الكثير من احاديثه في ذاكرتي:

((كل يوم تتاخر ليلى عن الدوام، لا أحد منا يسألها لماذا ؟ لأنها مثل كل مرة ستقول، ليست هناك مشكلة

اعقد من مشكلة النقل والسيارات

ولا اظن ان هذه المشكلة ستحل قريبا .. لا.. لا مطلقا لن تحل... وربما تزداد سوءا .

سهام ... تلك التي تطلق عليها - عمود كهرباء- لطولها الفارع وقامتها الرفيعة... كل يوم مثل عروس

تلمع وجهها بالاصباغ والبوترات المختلفة ... ساقاها ببياض الثلج، لا وجود للشعر قط فيهما ... سنة

أخرى وتدخّل في عامها الثلاثين ولأنّ لم يطرق احد باب قلبها، ليطلب يدها، حينما اقول لها :  
- أليكم يا سهام ؟

تبتسم ابتسامة باردة، مفتعلة، مثل ابتسامة المذيعات وتقول :

- ماذا افعل، اذا كان الشباب ينظرون الي من خلال الميكروسكوب، ويزنون حركاتي بمئات الموازين ؟؟

الحياة في نظر سهام أنيقة وجمال وموديلات جديدة وقصة شعر اوربية و... ولى لى وه سو ..

سردار ... الذي ودع قريته قبل اثنتي عشرة سنة واستقر في هذه المدينة، لا يزال يبحث له ولأطفاله عن مسكن افضل للايجار ... من الفرخ يظل فمه مفتوحا حينما يقول له احد ما في الحي الفلاني مسكن للايجار، لكنه في اليوم التالي يصرخ ملء حنجرتة:

((باللهول من يصدق ان خربة بغرفتين وبلا حمام بـ(110دنانير) ايها الناس اتعرفون كم اقبض؟ اثنتا عشرة سنة من الخدمة وانا لا اقبض سوى مائة وثمانية وثلاثين ديناراً وبضعة فلوس، بالله عليكم أهذه حياة اعيشها...؟؟))

تباً لحياة البؤس والتجوال والفقير الباسم لنا في كل الأزقة ... با لله عليكم أهذه حياة؟

ياكبيرياء رئيس هيئتنا حمود... لا احد من موظفي دائرتنا يتكبر مثله ابداً، لا سيما حينما نذهب بزيارة عمل إلى دائرة أخرى، يذهب الى المدير مباشرة، متباهيا بجنطته الدبلوماسية، وقبل ان يريه الامر الاداري، بغرور واضح، وظل مقيت يقول :

((انا حمود حامد العلي)) رئيس الهيئة - أقصد هيئة قطاع وزارة التجارة .. وسنبقى في دائرتكم لفترة تتراوح بين 20-30 يوماً، حتى ننجز كل اعمالنا هنا، اريدك ان تهيا لنا غرفة مريحة، نظيفة وعلى ذوقك الخاص، وان تكون مزودة بهاتف، لأنك تعرف ان عملي كثير وانني مسؤول عن عدة دوائر تابعة لوزارتكم ثم... ثم التلغون ضروري لي. و، وكل ما يطلبه اعضاء الهيئة من ناحية الحسابات والسجلات والجداول المالية يجب ان يلبي بدون تاخير، فالتاخير تدمير ... فوقتنا كما تعلم ثمين جدا ولا يجب ان تمر دقيقة واحدة دون عمل، اليس كذلك؟؟ ثم الوقت من ذهب، ها ها ها ...

لا احد يحبه،،،، وكل من عمل معه لم يكمل ستة اشهر، الا وطلب النقل إلى هيئة أخرى... لكني قد قضيت معه سنة ونيفاً بشق الأنفس، انه سيء في تعامله، حججه كثيرة للكلام، وعصبي جداً... جاف ومتعجرف، رجل كانه لم ير نور الحياة ..

زميلتنا وجدان تقول :

بالكاد نمضي وقت الدوام مع ثقيل الظل هذا، فليكن الله في عون زوجته، نرى كيف حالها بين يدي هذا الرجل و أنفه الأفتس...؟؟...))

xxx

هو يقول :

الحياة شجرة خضراء، يجب ان نبتسم لها دوماً، وان نتالمها بعين الأمل، حتى اذا ما جاءها الخريف ليرحل عنها بسرعة ولتخضر ثانية.

يحب اصدقاءه، علاقته جيدة مع اهل الحي، لا سيما مع جيراننا، ابداً لا يغضب من جارتنا المشاكسة الباحثة عن المشاكل، أم جبار .لا اعلم لماذا وبلا سبب، كثيرا ما تحاول ان تدس انفها في قضايانا الخاصة ...  
لكنه يقول :

- دعو هذه المرأة لحالها، ليكن بلاءها لها، لاتقربوها، لتتعفن بلسانها الزفر ..

حينها اقول له :

-انها تحسدنا

يقول لي:

- تحسدنا على ماذا؟ تحسدنا على بيتنا الدائري الكبير، المليء بالأشجار الخضراء، ام تحسدنا على بساتيننا التي ليس لها حدود والعامرة بكل أنواع الفواكه والخيرات؟؟  
اريد ان اقول له، أنها تحسدنا على حبنا وسعادة قلبينا، لكنني اترجع وابتلع تلك الكلمات واودعها في زاوية من زوايا قلبي واسدل عليها ستارا واقول:  
- يارب احفظنا لبعضنا .

يكاد أن يجن ويفقد وعيه عند رؤية ازهار الربيع، وطيран الفراشات الزاهية بالوانها اللامتناهية بحب وحرية.. قليلون مثله مولعون بعشق الطبيعة ..  
حينما ذهبنا إلى مصيف صلاح الدين قبل سنتين، بدعوة من صديقه "هيمن" كنت أحس ان روحا جديدة قد حلت في جسده وكأنه لم يكن يتجول بين اشجار وغابات صلاح الدين بل كأنه يتنزه في رياض الجنة..

تملتكتني الدهشة حينما قال لي فجأة:

- أحقا للجبل قلب؟

كأن عشرة رجال معا وضعوا ايديهم تحت ذقني ورفعوا رأسي نحو جبل "سفين" الذي كان قد رفع رأسه ليطاول عنان السماء، وبتقة وجرأة ينادي عين الشمس:  
"لا بد أن اقبلك، ان لم يكن اليوم فغدا، ان لم يكن غدا فبعد غد.."  
صار لجبل سفين وصخوره وسفوحه وأشجاره وطيوره فم ولسان، وقال لي:  
"ان لم يكن لي قلب كيف ينبت التين و الورد والنجس والسوسن بجواري وكيف تعقد هذه الرقصة البهية مع النسيم؟؟

كيف ستندفق المياه والشلالات من بين ثنايا صخوري وتروي ظما الرعاة والمسافرين وتمنحهم قوة جديدة ليسيروا بقافلة حياتهم نحو السعادة!!"  
ابتسامتي قبلت عينيه الصافيتين المتلأتين، وقلت له:  
- أهنك ارحم وأوسع من قلب الجبل على وجه الارض؟  
- كيف ذلك يا امرأة؟  
- يا امرأة ..كلمة جديدة لديك.. ممن أخذتها؟  
- لا تهربي من السؤال.. كيف له قلب؟  
- إذا لم تصدق، إسأل - سفين - نفسه، ليعطيك الجواب..  
- لا لن أسأله...تعالى لنشرب "سفن أب" من ذلك الكشك الذي يطير فيه صوت ناصر رزاي آه كم أحبك.. انا اعرف إنك متعبة، أليس كذلك؟..

xxx

ما كان يمر يوم دون أن يقول لي:

" راعيهما جيداً..إياك ان تدعيهما يكثران من الذهاب إلى الباب او الزقاق...."

باهتمام بالغ كان يرعى طفليه.. يُنقص عشرين سنة من عمره ويصبح طفلاً مثلهم.. يلعب معهم بلغتهم..كان يجعل من نفسه قطاراً، ويُركب طفليه على ظهره، وكان يصدر صوتاً مثل صوت القطار "جك..جك..جك..جك..جك..يا الله يا اطفال تمسكوا بي جيداً..القطار سينطلق..هيا ودعاً والدتكما.. جك جك جك، جك جك جك جك".

كان الطفلان يرفعان يديهما وبصوت ملؤه البراءة يقولان:

«هيا..هيا.. يا أبي..سق بسرعة..يا الله.. يا الله يا ابي..»  
 في خضم الفرح والضحك والسعادة التي حولنا، كنت ارى ان الحياة لا تسع فرحتي واحس بأن الدنيا صغيرة، صغيرة مثل غرفتنا، ولا احد غيرنا وطفلينا فيها..  
 حتى امي التي ولدتني ومن حليب ثديها كبرت، يوما بعد آخر كنت انساها..كيف أستطاع أن يأسر قلبي هكذا بالمرّة..ليتني كنت أعرف لماذا أحبه بهذا القدر المجنون..ليتني..ليتني أعرف!!  
 لكن الذي يقلقني ويفقدني عقلي، هو حبه المطلق للكتب والمجلات والصحف واهتمامه بهما..  
 ست علب كارتونية مليئة حتى الرأس بالكتب تحت سرير النوم، حتى اسفل الكنتور ايضا لم ينج من كتبه المترصصة بود فوق بعضها البعض...

احيانا ..لا لا بل معظم الأحيان كنت اتضايق من وجود الكتب، حتى اني كنت أود من صميم قلبي أن تغزوها الفئران وتمزقها بلا رحمة، او ان يمزقها طفلاه..ولكن اتى يحدث هذا وقد عود طفليه من الآن على حب الكتب، لا سيما تلك المليئة برسومات الكارتون والاطفال والاشجار الجميلة...بين الحين والحين كان يجلب لهم المجلات الملونة ويقرأ الحكايات لهم بصبر شاسع كالسما ..

بصراحة كانت هذه الكتب كثيرا ما تغدوا حسناء ذات ثمانية عشر ربيعا تشاركني في حبه، تردي فستانا زاهيا ليكسب وجهها جمالا أخاذاً، وهو ما كان يمل محادثها ولا يبعد عينيه لحظة عنها حتى ساعات متأخرة من الليل.. كان يحب القراءة لدرجة كنت أخشى أن يضعف نظره بسرعة.. حقا كنت أفرح حينما كان والده المتعب في محراب الله يقول له:

- ما كتب الشيطان هذه التي تقرأها، ألم تهنه دراستك؟ إقرأ القرآن يا ولدي، هذه الكتب لا تفيدك.

- بقراءة الكتب يا أبي يصبح الإنسان أكثر إنسانية.

- وكيف ذلك؟

- يفتح العقل أكثر، يتعلم المستجدات الحديثة، يكتسب المعرفة، يحترم نفسه والآخرين أكثر.

- أحيانا أقرأ القرآن أيضا يا ولدي فانا أريد مصلحتك.

- حسنا يا أبي.

- حينما كان يدرك بان صبري يكاد ينفذ وانني على وشك ان انفجر غضباً في وجهه كان يخاطبني

بود:

- هذا الكاتب يقول كذا وكذا كان يشرح لي بعضا من آرائه، ومن ثم يقول لي :

- أمعقول رأيه

- هو أيضا مجنونٌ مثلك.

- لا تسخري من كل شيء، حقا ماذا تقولين؟

كان يريد ان يضمني إلى جانبه، ويطفىء بهدوء نار قلبي المستعرة بكلماته الرقيقة الدافئة..

احيانا كنت ابدي رأبي، واحيانا كنت افضل الصمت، وأخرى كنت أفضل طبع قبلة على الحفرة

الجميلة في أسفل ذقنه التي أحبها واقول له:

- طابت ليلتك يا حبيبي،ماعادت عينايا تقاومان إغراء النوم.

احيانا كان يترك الكتاب الذي بين يديه ويضعه على الكومدينة الصغيرة القريبة منه ويقول:

- ماذا تقولين، لو تغسلين وجهك الصبيح بقليل من الماء، وتعدني لي شاياً حلواً طيباً يا نجمة هذه الليلة

المضيئة، يا حبيبة القلب؟..

حينما كان يتكلم بتلك الرقة والحب ويقول لي يا ربيعي.. يا روعي.. كانت خيوط النوم تترك عيني

واحدة تلو الأخرى وتهرب، ولا تبقى في تلك الأطراف بتاناً وكنت اجهل إلى أي عالم تطير.. حينها كنت على

استعداد لأعد من كل أنهار العالم شاياً ولأقدمه لكل البشر في العالم بقلب آمن هادئ.. يا للحب..!!

أه كم أحببك.. وكم انا مشتاقاً إليك وإلى كلماتك.. تعال.. تعال.. ها أنا والليل والأحلام والذكريات في أنتظارك.. لا تقل لا يزال الوقت مبكراً.. وان قافلة الليل لم تنتصف بعد، والله انا مجنونة لرؤيتك.. ماذا اقول؟ أي شيء أقول؟.

أقول ثانية أحبك، انا مشتاقاً إليك.. الليالي الطوال تلتهمني، إني أحترق مثل حطب مواعد الشتاء في كردستان.. أقول لك أنني بدونك فاقدة للوعي والتفكير، ولا اعرف اين الطريق.. هيا تعال.. تعال وازرع هذه الشفاه الذابلة بالأمال والابتسامات.. ألا تدرك انني بدونك بلا حياة؟ تتقاسمني الهموم والأحزان.. حقا المرأة بدون رجلها شجرة مكسورة، ضعيفة، مهزومة، لا تستطيع الصمود امام عواصف الحياة.. تعال.. يكفي.. الم تكن انت القائل " لن أبتعد عنك ابداً". تعال.. تعال بالله لم أعد أحتمل الأنتظار. ليل نهار يسال طفلاك عنك، يقولان ويرردان:

- أين ابونا يا أماه؟.

- لماذا لا ياتي إلى البيت؟.

- أنت تكذبين علينا، حتى ننام كل ليلة، أين.. أين أبونا؟.

- سيأتي ويجلب لنا الحلوى!! أليس كذلك يا أماه؟.

الكبير يفهم، يدرك الأمور، لا يقتنع بأقوالي بسرعة.. قبل العيد بأسبوع قلت له:

- ولدي لنذهب ونشتري لك ملابس العيد.

رفع رأسه إلى حيث صورتك المعلقة في الجدار، وبصوت ممزوج بالأسى والبكاء قال:

- لا أريد ملابساً.. أريد أبي..

أمثلاً لحلقه بالبكاء وبكى بحرقة، لم أستطع أن اهدئه، احتضنته، وتوحدت دموعنا معاً وكنت اسمع صوتك يأتي من اعماق بعيدة، سحيقة، يأتي بصعوبة:

" واحسرتي لما حل بكم، ليخرب الله بيت الذي ابعدني هكذا عنكم".

- أهذا الصوت الحزين المفعم بالأهات صوتك؟. من اين كان ياتي؟. أمّن اعماق البحر؟. أم من نهايات

نفق عميق؟ او من ثنيات الجبل الأبيض؟. ام من متهات صحراء العرب الحارقة؟. ليتني اعلم، من أين كان ياتي صوتك؟.

الحمد لله انهما يشعران بالرحمة عند جدتهم وأكثر الأحيان هما عندها، ويسعدان بحاكاياتها التي ترويها لهما، أتعلم لو لم تكن امك، ما كنت اعلم كيف ساداري الطفلين، وأتخلص من أسئلتهم التي لا تنتهي.. والدتك تحبهما جدا وتقول:

- أنهما يحملان نفس عيون وملامح ابني .

- وأنا، أنهما قطعتان مني! ألا ترين كم يشبهانني ؟

- يقتربان أكثر من سيماء ابيهم.

- وهل أباهم هكذا متورد الخدين؟. ذلك الأسمر ذي الشارب الكثيف.

- أهنالك أحلى من ولدي يا بنت! انه السكر بعينه .

- أتدري ياخفيف الظل، قبل بضع ليالٍ كان "شينووار" يحكي لي قصة الضفدعة بلسان سلس،

متكسر:

هيا أخرجي ايتها الضفدعة

من حجرك

هيا كي أقبل أنفك

قلت له:

- من روى لك هذه القصة؟
- هز رأسه قرب المرأة الكبيرة، ونظر إلى نفسه من خلالها، وقال لي:
- جدتي.. جدتي.
- أتعرف قصصاً أخرى؟
- نعم قصة الذئب والثعلب أيضاً .
- أحسنت، أذن اصغ جديداً لجدتك حينما تروى لك القصص، لتتقنها وترويها ثانية لي يا شينوار.
- وهل ستشترين لي الكاستر؟
- يا حبيب القلب كيف لا. أنت تتدلل.
- والآن هما عند جدتهما، صحيح أن الوقت متأخر، لكنني لا أظنهما قد ناما، ربما يرهقان الآن جدهم وجدتهم باسئلتهم البريئة..
- جدهم دوماً ينظر اليهما بصمت حنون ويحتضنهما.. ويتفطر قلبه حينما يراهما.. قبل أيام دخل غرفتي، نهضت إجلالاً له، وكان في يدي كتاب:
- أنت أيضاً مثله، أصبت بداء القراءة.
- استفيد من وقتي بالقراءة.
- بالله عليك أهتمي جدياً بحفدي.
- وهل لي غيرهما.. لولاهما لكنت قد مت منذ زمن.
- كم هو إنسان رائع أبك، يا لسعة صدره وهوئه، وكأنه ليس من هذا الزمان، لا يتدخل في شؤون أحد، لا يزعج أحد، لا يتكلم كثيراً، لكنني أعتقد أن في قلبه أسراراً عميقة.. لكن متى سينفتح ذلك القلب؟.

xxx

في الذكرى السنوية الأولى لزوجنا، أعددت حفلة صغيرة، وحينما طلبت منه ان يقطع قطعة الكيك التي عملتها بيدي في البيت لنوزعها على الحضور، امتعض قليلاً، باتت عليه مسحة من الحزن المخفي.. بعد أن ودعنا أصدقائنا وبقينا لوحدها.. وقبل أن اعاتبه سبقتني في الكلام وقال لي:

- لا احب هذه الحفلات الباهتة والمقيبة، لا أريدك أن تكرري هذه الحادثة ثانية.. لو كنا لوحدها، أنا وأنت، ألم يكن أفضل وأطيب؟. أكلني بعينيه وبرقة قال :

- كل سنة وأنت بخير وسلامة ونرجس.

لم أرع له منه وفرصته من فخذة وبقم باسم، وفرح مجنون قلت له:

- سامحني هذه المرة.. وحق شعرك العقوف لو كنت اعرف أنك تمقت هذه الأمور ما كنت فعلتها هيا أضحك.. أضحك يا الله.. لا أريد أن أمنح الليلة الفرصة لأي شيء يعكر صفونا ويدخل إلى غرفتنا.

حينها ابتسم من الأعماق وتورد وجهه واشرقت عيناه وبطرف عينه اليسرى أشار لي، كان يريد قبلة، هذه كانت أشارته لذلك..

مد لي يده على طولهما وكان قلبي يسمع قلبه ينادي:

'هيا اقبلي يا حبيبتي.. يا حمامة بيتي.. هيا اسرعي، تعالي..'

سبقتني الشوق اليه واحتميت بصدرة ووضعت رأسي على كتفه الأيسر، واحطت يداي برقبته، واغمضت عيني بشدة ولم أرغب في أن افتحهما.. كنت أود لو ان الحياة تتوقف حينها ولا تتحرك مطلقاً.. كم كنت اشعر بالأمان، حين كان يمرر باطن يديه بتلك الحنية والحب والرقعة على ظهري.. كانت ليلة سعيدة، ولن انساها قط. لكنني أمل ان تكون ليلتي هذه أجمل.. أين أنت؟ تعال.. تعال.

كالآن اتذكر، كان يوم الأثنين، كنت اكوني قميصه، حينما عاد من الدوام كان في يده ظرف حلوى، رماه باتجاهي ونزع سترته ورمها على السرير:

- اتعرفين لمن هذه الحلوى؟
- أو أشم رائحة اصابعي؟
- فكري قليلا وستحززين.
- لم لا تقول لي انت؟
- هذه الحلوى هي لفرح شقيق وجدان.. الخميس عرسهم.
- عالخير والبركة..

- كل الخير والهناء.. و.و. يوم الأربعاء هناك حفلة في بيتهم.. وتريد وجدان ان نكون من بين الحضور.. لكنك تعرفين انا والحفلات لسنا على وئام.. ولن نذهب.. ثم بعد ايام ساختار هدية لشقيقها واهديها له بالمناسبة.. هيا افتحي الظرف لنحلي حلقنا به...

وجدان.. وجدان.. هذا الاسم لا يغادر شفثيه.. وجدان عملت كذا.. وجدان قالت الشيء الفلاني.. وجدان نكية.. وجدان ذات ذهن وذاكرة وقوية.. خفيفة الظل.. حلوة المعشر.. وجدان تحترمني كثيرا وكذلك أنا.. من انت يا وجدان؟؟؟ ماذا تريد من منه؟؟؟ ماذا بينكما؟؟؟ بالله يا وجدان لايمكنني قط أن انسى كلماتك : "أرأيت انهارا زرقاء صغيرة تنبع من قمر وردي؟؟"

لم اكن اعرف انه يعني بذلك جمال وجدان، حتى هو نفسه قال لي ذات مرة:  
زهرة دائرتنا واجمل فتاة فيها هي وجدان.. وكل البنات يحسدونها على جمال وجهها الذي يخجل منه القمر..

يجب أن أرى وجدان هذه.. أخشى ان يكون على علاقة حب بها.. وإلا ما الذي يدفعه إلى ان يذكر اسمها كثيرا في حضوري.. لا.. لا.. كلامه عنها لاياتي من فراغ!! لابد ان يكون هناك شيء ما.. لم هو دوما يذكر اسمها؟؟؟  
هو نفسه يقول:

"في قلب كل رجل بقعة سوداء.. ولا احد ملاك ابداً."  
من لايقول ان حبه لوجدان هو تلك النقطة السوداء في اعماقه؟ والله لو ان السماء تنطبق على الأرض يجب ان نذهب معاً إلى بيت وجدان لأراها.. الأفضل ان أكون يقظة لهذا الجانب، الرجال لاياتمون، هم ليسوا اهلا للثقة، لأضيق عليه الخناق!!

مضغت قطعة حلوى وناولته واحدة وبدلال امرأة قلت له:  
- ارى انه لمن العيب الأ نحضر حفلة شقيق وجدان!!

- لماذا؟
- اليست اقرب صديقة أليك؟
- بلى.
- أو ليست للصدقة حقوق؟
- بلى.

- و..والحقيقة هذه فرصة طيبة للتعارف ايضا.. ليكن قبولك الطلب من اجل خاطري.. ها ماذا قلت؟  
يا الله قل موافق!!!

- ولأي سبب آخر؟



- لا شيء ابدا.
- حقا!.. لاشيء آخر !!
- ألا تصدق؟
- فليكن يا رائعة العينين.. انا ايضا اريدكما ان تتعارفا.. و.. وربما يموت الشك الذي يسكن قلبك.. ويحل الهدوء محله، أو تظنين اني لا أحس بحركات الأفعى السوداء التي تسكن اعماقك منذ زمن..
- يا لك من..!!
- هكذا قلت له وخرجت لأصب لنا الغداء..

xxx

كان الوقت مساءً.. والظلام يرسل خيوطه السوداء افواجاً، لكنها ما كانت تستطيع ان تجد لها موطن قدم قرب زقاقهم ولا سيما امام باب بيتهم المزدهم بالسيارات المترصفة، من شدة الأضواء الملونة المحاطة بكل جوانب بيتهم المتألق والذي كان يبدو خيالياً لنا.

ما أن دخلنا الدار، حتى استقبلتنا فتاة بوجه مشرق دائري كتفاحة، هو مزيج من الثلج والدم، مزدانة بفستان ازرق فاتح قد سرق لونه من السماء الصافية، كان فستانها مزداناً بورود بيضاء صغيرة.. بابتسامة استقبلتنا وكانت يداها تسافران في الهواء... من خلال حركتها كانت تقول اشياء لا ادركها، لكنني متأكد من انه كان يعرف جيداً ماذا تقول هي بحركاتها تلك دون ان تنطق بحرف واحد. هما يفهمان اشارات بعضهما البعض، مثلما نفهم جيداً انا وهو معنى كل حركة من حركاتنا الصامتة.. قبل ان تصلنا قالت:

- على الريح والسعة.. اهلاً بمقدمكما.. يا أهلاً.
- مدت يدها اليمنى باتجاهي وبدون تردد قالت:
- اكيد هذه هي "كولستان" اليس كذلك؟
- نظر ألي بفرح وقال لها:
- لا.. هذه كولستاني أنا..وردة حياتي الباسمة.
- يا لحلاوة لسانه، لا تصدقيه يا وجدان، إنه نار..
- أو لا اعلم، انه نار كبرى!.
- شكراً.
- ضحكنا ثلاثتنا.. وقالت هي:
- ليحفظ الله لك كولستانك.. الحق انها زهرة حقيقية.
- بصدق وحرارة قبلتني وقبلتني، واحسست بانني اعرف هذه الفتاة منذ زمن بعيد وان لي معها صداقة طويلة جداً.. من النظرة الأولى دخلت إلى اعماقي واحببتها واحسست بالراحة قربها..
- مع نفسي قلت:
- "كان دلشاد على حق، حينما كان يقول لي، رأيت انها زرقاء صغيرة تنبع من قمر وردي".
- وجهها ثلج ودم.. يا لحلاوتها، حتى شرايين وجهها واضحة جدا.. ما شاء الله من حسنها ليحفظها الله ويطول في عمرها وليجعلها من نصيب رجل يقدرها ويعرف قيمتها..
- تعالي لأعرفك بصديقات الدائرة.
- تفضلي..
- كان بيتهم واسعاً مريحاً مساحته اكثر من عشرة بيوت محلتنا، والروائح العطرة تفوح من حديقتهم الكبيرة، التي فتحت قلبي اكثر لحب الحياة. ترى أسيكون لنا يوماً بيتاً كهذا؟
- بين

ضحكاتهم واحاديثهم جاء صوتها العذب:

- هذه ليلي.. وفاء.. سهام.. بشرى.. هدى.. منال.. وهذه هي كولستان زوجة زميلنا دلشاد..

- أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً.. تشرفنا بمعرفتك..

- أهلاً بكم جميعاً.. أني سعيدة بمعرفتكم..

- وكذلك نحن..

- لماذا لا تزورينا مرةً في الدائرة؟

- أرجوا المَعذرة لم أزوركم؟

- انها على حق، وهل دائرتنا حديقة عامة؟

- أم تريدونها أن ترى شكولات حامد؟

- لا نذكرينا به هنا وإلا سينقلب فرحنا إلى ماتم آخر.

- بالله عليك يا كولستان زورينا مرةً.

- انا اسيرة الدوام.

- أي دوام يقيدك؟

- المدرسة ودروس الأطفال فيها

- رائع ان تكوني معلمة مدرسة.

البعض من تلك المجموعة كن ينظرون أليّ خلصة ويتهامسن فيما بينهم.. سحبتي وجدان من يدي،

وقالت لهن:

- اتركوها.. ستقتلونها بالاسئلة..

اخذتني إلى غرفتها، تناولت مشطاً وبدأت بتسريح شعرها امام المرأة وعيناها لا تملان النظر إلى

وجهها، حينها قلت لها:

- دع المشط جانباً وكفك وقوفاً امام المرأة، تالله انت وحدك مليكة هذا الحفل، كفك اناقة ودلالاً،

فالحلاوة تسيل منك.

- أحقا ما تقولين؟

- أولاً تصدقين؟

- أم كم أحبك!

- وهذا ما يردده قلبي الآن أيضاً.

كانت حديقتهم ملأى بالزهور والصبايا والشباب والدبكة مستمرة، وصوت المغني الشاب كان يخترق

أذان الجيران والجدران:

ان كنت تحبيني حقاً

يا قمرية الوجه، يا جميلتي،

خذي القربة كي اتي

كان ضائعا في خضم المدعوين، احيانا كانت تلتقي عيناها، كان يغمض لي عيناً دون خجل، بدون

شعور كنت ابتسم له.. ظهر لي ان علاقته جيدة بزميلاته في الدائرة، حيث كن تحطن به كالفراشات

الطائرة بفرح واضح.. لكني لا اعرف امن كل قلوبهن كن يضحكن ويبتسمن ام انهن يخفين الام قلوبهن

تحت ستار هذه الابتسامات والضحكات الكاذبة المفتعلة..

عندما حانت الفرصة ورأيته لوحده، بابتسامة قلت له:

- هيا يا هارون الرشيد هذا يومك.. ما كل هذه الازهار التي تحيط بك يا رجل؟

- لا تخشي شيئاً يا زهرة نيسان، فانت وحدك حبيبة القلب وستبقين دوماً حبيبتي..

- اجل.. اجل.. افنعني بكلماتك الرقيقة هذه.. أهذا أنت الذي لا تحب الحفلات!.
- اقترب مني اكثر وبصوت حالم هامس كنسيم صباح انقلته الثلج قال:
- اني اتحرق إلى شفتيك.. قبليني!.. لتكن اكراما لوالديك!.
- هزرت له راسي وانفلتت ابتسامه من شفتي وهربت قائلة له:
- أنى لك ذلك!! أتريد ان تفضحنا؟ أجننت؟.
- بالله عليك يا كولستان..
- اصبر يا رجل.. لم يبق الا القليل وسنذهب إلى البيت، ولا يزال الليل طويلاً.
- ساكون في حرب مستمرة هذه الليلة..
- سنرى..
- كان حريصاً جداً على ان ابدو مرحه، منطلقه، فرحه، والحق كنت كذلك لانه كان بجانبني، بداخلي.. بداخل قلبي السعيد به.. ومات في تلك الليلة ذلك الافعى في قلبي واحسست ان وردة بيضاء كجبين وجدان حلت محله.. وليلتها لم احس بالتعب مطلقاً.. بل اخذني النوم الهادئ إلى احضان فجر جديد باسم لشعاع الشمس الذي كان يقبل الأرض وأوراق الشجر، ويبتسم للعصافير.
- xxx
- كم حاولت ان اتحرر من ذلك الضحك.. الضحك من الاعماق حينما رأيته بتلك البدلة الخاكية العريضة الطويلة التي يضيع فيها، مثل طفل يرتدي سروال ابيه.. ازدادت حدة ضحكي حينما قال طفلنا شينوار بنية بيضاء:
- هذا "كروعي".."كروعي".."ابي كروعي"..
- حينما نظر إلى نفسه في المرآة، ورأى هيئته، ضحك من منظره، والتقت امواج ضحكنا معاً في سماء الغرفة الصغيرة التي تحتوينا. التفت الي وقال:
- اما يكفي ضحكك يا ابنة الحلال!! أولدت من الضحك؟
- ان لم اضحك اليوم، فمتى اضحك اذن.. اذا كنت رجلاً ستنظر إلى نفسك ثانية ولن تضحك؟.
- كفى..كفى.. والآن انظري اليه جيداً لتعرفي كم ستاخذين من عرضه، وكم تقطعين من طوله.. اريدك ان تجعليه يبداً ملائماً لي..
- ولكن لماذا لم تاخذ بدلة على مقياسك؟
- انت ايضا على حق.. ولكن لمنتك كنت رأيت عيني عريف الأعاشة الزائغتين وجبينه المعقوف الذي يبدو عليه بوضوح اثر البيرية، ووجهه الذي احرقته الشمس، كيف امتألاً بعلامات الغضب حينما قلت له بكل أدب وأحترام:
- عريف حنظل ... هذه البدلة كبيرة جدا والبيرية واسعة من الأفضل ان تبدلها لي باخرى اصغر.
- تحول العريف راساً إلى نار تريد أن تحرقني:
- بالله بسرعة خذ بدلتك واغرب عن وجهي ... قبل انا ارسلك إلى الحلاق ليلمع رأسك ... توأ قد جاء الى الخدمة و يريد ان يجادلني وان يعلمني عملي، وكانني لست عريفاً او انه لايرى خيوطي الثلاثة ... هيا اغرب من هنا .
- على كيفك يا عريقي، انا لست خادماً امام باب ابيك، حتى تكلمني بهذه الطريقة .. اننا نخدم الوطن من خلال الجيش ... وانا لم اطلب منك صدقة...
- بعين مألها الشر والحقد قال:
- لا أحد افسد علينا متعة عملنا غيركم أنتم اصحاب الأقلام والمدارس.

- يبدو ان العريف رتبته كبيرة في الجيش ؟  
 - لا والله يا كولستان ليست رتبة كبيرة، ولكن هذا العريف بالقوة يفرض نفسه على رأس الجنود الجدد... له عقل جامد كالحجر ...  
 - يعني حنظلكم مطابق لأسمه؟  
 - لا...لا... لقد اجتاز الاسم بامتياز، ونحن نسيميه فيما بيننا سَكْرُ.  
 - ستري كيف سأجعله يبدو كأنه قد فصل لك ... فأنا لا أستطيع ان اراك في هذه البدلة التي تسع شخصاً اخر مثلك. والأفاني سأنفجر يوماً من الضحك...  
 - فلتسلمي لي يا حلوتي ...  
 - ثم ... ثم ... ثم  
 - خيراً .. قولي مابك؟  
 - حلوتك تريد منك شيئاً  
 - اعرف ماذا تريدين .  
 - لا، لاتعرف ماذا اريد،هيا قل ماذا اريد ؟  
 - تريدين قبلة، الست صائباً؟  
 - لا...لا...لا...  
 - اذن ماذا؟  
 - ملّ الطفلين من جو البيت ليتك تاخذنا مساء الغد الى مدينة الألعاب ليرتا حا قليلاً  
 - ونحن ايضا بحاجة إلى الراحة، اليس كذلك؟  
 - لقد اصبت الهدف.  
 - على العين والرأس.  
 ×××

في تلك الليلة حدثني عن العسكرية، وعن صديقه حسن محمد عثمان، قال لي :  
 - حسن يقتل قسوة الغربية والامها بنكاته المرحة، لغته العربية ركيكة، تكاد لا تكفيه للتفاهم اليومي، لكنته الكردية بادية فيها كالشمس لا يكاد رأسه الصغير يُبان من بيئته الكبيرة .  
 في اليوم الاخير من دورة المدافع المضادة للطائرات كان الامتحان، وقف ضابطنا الآتي من تخوم الصحراء الحارقة، بقامته القصيرة القميئة . وكرشه المدور. قرب المدفع . نقل عصاه من يد إلى أخرى، نظر إلى بنطاله القهوائي، وبصوت جهوري صاح:  
 - حسن محمد عثمان  
 - نعم سيدي  
 تقدم حسن الى الامام . وحينما إقترب من الضابط . ضرب الارض بقدمه اليمنى، ورفع يده اليسرى بموازة الحاجب .  
 قال له الضابط بحنق :  
 - التحية باليمين يا حسن ... إرجع وكررها من جديد يا لله...  
 تراجع حسن إلى الخلف ثانية، ثم تقدم نحو الضابط وبقوة ضرب الارض بقدمه، ورفع يده اليمنى لأداء التحية العسكرية .  
 استنكف الضابط ان يرد التحية .... مدّ عصاه باتجاه سبطانتي المدفع وقال له:  
 - هذوله شنو حسن ؟

- إقترب حسن من المدفع أكثر، وبلغه كربية خليطة بعربية ركيكة قال:
- هادا لويليكن مال مدفع زد تيارات  
ضحكنا جميعا مع الضابط الذي كان يهتز كرشه .  
سأله الضابط ثانية  
- شنو لو يليكين؟  
- ئانكو نئين...دو...يعتي ئئين ... ماتعرف انت !! اني صحيح يكولل ..  
إلتفت حسن الي، وقال لي بالكردية:  
- فهم هذا الحيوان يا دلشاد . قل له ما قلتة.  
سألني الضابط  
- ماذا يقول ؟  
قلت له :  
- سبطانتي المدفع المضاد للطائرات،سيدي  
- ئي..ئي..أني هيجي كال  
- عفية حسن عفية، انت لازم تتعلم عربي زين  
- نا والله نه زين.  
- ليش نه زين حسن ؟  
- سيدي انت هم علم كردي، كردي زين .  
- زين حسن أشكد ملاك المدفع؟  
- والله اني ماعرف انت أش كال  
- ها شد كول؟  
- مايعرف سؤال  
- دلجاد ترجم لو بالكردي  
- كم عدد جنود المدفع؟  
- سبعة اعداد  
- كل الزين حسن، روح عفية ...  
كان حسن يردد لي حينما نكون وحدنا :  
- العسكرية لا تصلح لنا، هذه المرة ساجد لي حلاً حينما اكون مجازا ..  
كيف سأعيش بين هؤلاء السلوقية، نصفهم لا يفهمون من الدنيا حتى الآن غير الاكل، ولا يعرفون  
شيئاً اخر ... اعداد عد..حيته وحدر(حيطة وحذر)..  
ليش مازين لحيك ؟ خوما هرو لحيك !! حراسة الليل، غسل المواعين، القصعة الباردة الفقيرة  
لا...لا... ليس هذا مكاني الحقيقي.  
- إلى اين ستذهب يافتي ؟  
- إلى الجنة، الجنة الثلجية الواسعة  
- اينما ذهبت سنلتقي  
- ألسْتُ على حق  
- وهل للحق قرون؟  
- أتصدق إنني لكنتُ متٌ من ضيق النفس لولا أننا معاً مع الخمسة الآخرين من الكرد.  
- أدرك ذلك جيداً

- كل يوم عشر مرات خذ التحية لأبن عمشا السوداء...  
تعلم عربي ... تعلم كوني بابي ته !! (تعلم خصيان ابوك...!!)

xxx

ما كنا نتمكن ان نتحدث مع بعضينا من كثرة اسئلة الطفلين، من اين كانت تاتيهم كل هذه الاسئلة

؟

- أبي لا تذهب إلى العسترية بعد الان .... اتسمعني يا أبي؟  
- لماذا يا ولدي؟  
- هكذا يعجبني ... العسترية لا تدعك ان تجلب لي البرتغال كل يوم..  
- أو لا تشتري لك والدتك البرتقال ؟  
- لا اريد برتغالاتها ..ل.لتأخذني إلى الدكان وتشتري لي البستويت  
- شينوار لا يعرف ان يقول عسكرية، انه يقول عسترية...  
- لانه لايزال صغيرا يا اردلان، انه بيبي، حينما يكبر ويصبح في سنك سيجيد الكلام بوضوح...  
- ابي لقد تعبت، احملني على كتفك..  
- ليس الان، حينما نصل باب الحديقة حينذاك. تشجع يا صغيري..  
- ااماه.. اماه اذن احمليني انت..أ..أ..أنا ساعطيك حلوى.. لقد اخفيت قطعة حلوى تحت سريري  
لكي لا تاخذها قَتَّتي(قَطَّتي)

اخذتني به رافة وقلت لوالده:

- أحمله يا رجل.. ألا تقدر مقدار تعبته، ما عادت ساقاه تحملانه، يا لقسوتك!

انحنى عليه وابتسم له:

- وهل ستعطيني قطعة حلوى؟

- نأ..نأ.. واحدة بس.

- تعال حبيبي.. يا ولدي العزيز..

عندما حمل شينوار، حينها سال أردلان والده:

- ابي.. لماذا لم اتعب انا؟

- لانك رجل نشط يا ولدي..لقد كبرت.

- لا والله لست رجلاً..مازلت صغيراً.. اين شارباي.. حينما ينبت لي شاربان مثلك ساكون رجلاً..

- من قال لك ذلك؟

- امي قالت

التفت الطفل ناحيتي واكمل حديثه:

- اليس كذلك يا أماه؟

- نعم يا نور العين يا ولدي..

حينما وصلنا الجسر صرخ أردلان:

- هو هو، انظروا إلى طيور الماء كم هي كثيرة!.

كانت اشعة الشمس ترقص بفرح على الحان سمفونية رقيقة على وجه دجلة الباسم. على ضفتي

النهر كانت تنتشر اسراب من طيور الماء. احياناً كانت بعضها تهاجم الماء بقوة وتغوص إلى الاعماق مثل

الطلقة، وسرعان ما كانوا يرتفعون ثانية إلى السماء.

قارب صغير ليس فيه احد كان يرقد بخمول في الضفة الاخرى.

- لمَ يا اماه تعشق هذه الطيور الماء وتظل فيه؟  
هذا ما قاله اردلان لي.  
وانا احدق بشوق إلى امواج النهر قلت له:  
- انهم يصطادون السمك لانفسهم.  
- كيف؟  
- أووه، يكفي، وكيف لي أن اعلم..  
- ابي كيف يصطادون السمك؟  
- بمناقيرها يصطادون السمك.  
- اين التّمك؟  
هكذا نطق شينوار، موجهها كلامه لنا:  
- السمك في الماء يا ولدي.  
- صيدوا لي واحدة.  
- ليس بوسعنا ذلك.  
قال أردلان:  
- قلّ لطير الماء ان يصطاد واحدة لشينوار يا ابي!  
- يبدو انك من الآن قد خرجت عن طورك، ولن نستطيع السيطرة عليك يا أردلان.  
- لا تتحدث هكذا عن ولدي، هو لم يقل شيئاً.  
- نعم، نعم، لا تتكلم عني هكذا، وهل انا مازلت صغيراً؟  
- ما هذا الحلف يا ولد، يبدو انك وامك متفقان جداً.  
- وهو كذلك انا وولدي متحالفان معاً، فاحذرا!  
حينما اجتزنا الجسر، التفتت ثانية خلفه ونظر إلى النهر الذي خلفناه وراءنا. كل واحد منا امسك بيد طفل، واجتزنا مبنى البلدية، بصعوبة، اجتزنا الشارع الغاص بالسيارات إلى الجانب الآخر. بعد دقائق صرنا وجهاً لوجه قبالة تمثالي الاسدين المصبوغين باللون الابيض، لا ادري أي عاقل قد امر بصبغه باللون الابيض، اليس في مخهم ذرة عقل؟ من رأى اسداً ابيض؟  
في ذات اللحظة التي رأى فيها أردلان الاسدين قال:  
- انظر يا ابي، هذا هو الاسد، هوو كم هو كبير.. انظر انظر كيف يسيل الماء من فمه..  
من على كتف والده صاح شينوار:  
- اين الاثد؟..اين؟  
رداً عليه أردلان:  
- هذا هو.. ألا تراه.. هوو يا لذنبه الطويل...عوع..عوع..  
ساله والده:  
- أتحب الاسد يا أردلان؟  
- نعم يا ابي انه صديقي، انا لا اسير حافي القدمين ابدأ، لهذا لن يأكلني.. ذات مرة رايتته في التلفزيون يطارد الاطفال الحفاة..  
- نعم ... نعم يا ولدي الاسد يحب الاطفال النظيفين، ويصادقهم، اياك ان توسخ نفسك ها وإلا فإن الأسد سيزعل منك ..!!  
- حسناً يا ابي ... حسناً...

- الأثد يصيح "هو...هو...هو...هو" بصوت عالي.  
الأثد قدر...قتتي جميلة وعاقلة وتقول "ميو...ميو...ميو" وأنا أيضاً أقول لها "ميو... ميو... ميو... ميو... ميو... ميو..."
- كفى إلى متى تبقون حول الاسد ؟  
- عفوك سيدتي، هيا تقدمينا ...  
- مع السلامة ايها الاسد، مع السلامة يا صديقي  
- قدر، قدر انت ايها الأثد
- من خلال الخطوط البيضاء اجتزنا الجانب الآخر من الشارع، سياج الحديقة العامة اصبح مقابلاً لنا، سرنا بضع خطوات، اتجهنا يساراً، أصبحنا في مدخل الحديقة التي كانت تفوح برائحة الورد والرياحين دخلنا الحديقة....
- لم يتمالك اردلان نفسه، اسرع إلى حيث الزهور .  
قال شينوار لأبيه :  
- انزلني يا أبي، ساذهب إلى اردلان  
بهدهوء انزله من كتفه، وقبله...أسرع شينوار إلى أخيه ..  
قال الأب لهما  
- كونا عاقلين، لاتقطفا الازهار، كي آتي بكما دوماً إلى هنا ...  
قال اردلان  
- حسنا ابي حسناً.  
لكن شينوار التفت إلى الخلف باسمماً وقال:  
- ساقطف زهرة واحدة!!  
- سازعل منك، إياك .  
- لا...لا...لن افعل .  
أسرعا إلى رياض الزهور المتفتحة الملونة .  
كانت أصوات الطيور المتنوعة وزقزقة العصافير تمنحني حيوية ونشوة كبرى .  
جلسنا انا وهو على مصطبة واسعة . عدد من الطلاب كانوا مشغولين بالقراءة... وصوت الاطفال كان ياتي من الطرف الآخر.  
قال لي ضاحكا:  
- اهلا بك يا كولستان.  
- اهلاً حبيبي  
- المساء جميل اليس كذلك ؟  
- رائع جداً،جنة معك .  
- هيا جملي المساء بكلماتك الطيبة .  
- هل ستسخر ثانية من كلماتي ؟  
- أمجنون انا يا مجنونة؟  
- هذه الحديقة الشاسعة رائعة.  
- هذه الحديقة كانت ملتقى الشبان الكرد، لاسيما الطلبة ... كل ايام الجمعة كنا نلتقي هنا . لقد قرأت كثيراً في هذه الحديقة ... لنا ذكريات كثيرة في هذه الحديقة .